

أَمَّا بَعْدُ ، فَأَوْصِيكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَنَفْسِي
بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ "

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ، مِمَّا شَاعَ فِي مَجَالِسِنَا ،
وَصِرْنَا نَتَنَاقَلُهُ فِي بَرَامِجِ التَّوَاصُلِ بَيْنَنَا
، كَثْرَةُ الشَّكْوَى مِنَ الزَّمَانِ وَذَمُّهُ وَذَمُّ
النَّاسِ ، فَإِنَّا أَشْكُو وَأَنْتَ تَشْكُو ، وَهُوَ
وَهُمْ يَشْتَكُونَ ، شَاكَ يَشْكُو مِنْ تَهَاجُرِ
النَّاسِ وَقِلَّةِ تَزَاوُرِهِمْ وَضَعْفِ تَوَاصُلِهِمْ ،

وَذَامٌ يَدُّهُمْ بَقْلَةٌ وَفَائِهِم وَكَثْرَةٌ إِخْلَافِهِمْ
الْوَعْدَ وَتَجَاهُلِهِمْ ، وَهُنَا مَنْ يَرَى أَنَّكُمْ لَا
يَبْذُلُونَ وَلَا يُعِينُونَ وَلَا يُسَاعِدُونَ ،
وَهُنَاكَ مَنْ يَأْسَفُ لِتَضْيِيعِ مَعْرُوفِهِ
وَنَسْيَانِ جَمِيلِهِ ، وَهَذَا حَزِينٌ جُحُودِ
أَصْحَابِهِ فَضْلَهُ ، وَذَاكَ مُسْتَنْكَرٌ تَوَلَّيَهُمْ
عَنْهُ بَعْدَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ . وَقَدْ صَارَ الْعَاقِلُ
مِنْ كَثْرَةِ مَا يَسْمَعُ مِنْ ذَلِكَ وَيَقْرَأُ ، بَلْ
وَمِمَّا يَخُوضُ هُوَ فِيهِ مَعَ الشَّاكِينَ

وَيُشَارِكُهُمْ فِيهِ ، صَارَ يَسْأَلُ نَفْسَهُ : هَل
أَنَا سَالِمٌ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي أَرَاهَا فِي
الْآخَرِينَ وَأَشْكُو مِنْهَا وَيَشْكُو غَيْرِي
أَضْعَافَهَا ؟! أَمْ أَنَّ لِي وَلِكُلِّ شَاكٍ نَصِيبًا
مِمَّا نَشْكُو مِنْهُ ؟! أَمَعْقُولٌ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ
مِنَّا هُوَ وَحْدَهُ حَسَنُ الْأَخْلَاقِ كَامِلُ
الصِّفَاتِ السَّالِمُ مِنَ الْعُيُوبِ وَالْآفَاتِ ،
وَأَنَّ الْآخَرِينَ هُمْ السَّيِّئُونَ الْمُصَابُونَ
النَّاقِصُونَ ؟! أَوَلَا يُوجَدُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا

أَحَدٌ رَاضٍ عَمَّنْ حَوْلَهُ وَمُرْتَا حٌ لِّتَعَامُلِهِمْ
!؟

إِنَّ هَذَا التَّشَاكِيَّ وَذَاكَ التَّبَاكِيَّ ، لِيُذَكِّرُنَا
قَوْلَ الشَّاعِرِ :

كُلُّ مَنْ لَاقَيْتُ يَشْكُو دَهْرَهُ
لَيْتَ شِعْرِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِمَنْ
حَقًّا ، إِذَا كُنْتُ أَنَا أَشْكُو مِمَّنْ حَوْلِي ،
وَأَنْتَ تَشْكُو مِنْ غَيْرِكَ ، وَإِذَا جَلَسْنَا مَعَ
صَدِيقٍ أَوْ زَمِيلٍ سَمِعْنَاهُ يَشْكُو وَيَعِيبُ ،

وَالرَّسَائِلُ تَأْتِينَا لِنَحْشُو صُدُورَنَا وَتُعَبِّئَ
نُفُوسَنَا بِأَنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرُوا ، فَمَاذَا بَقِيَ
وَمَنْ بَقِيَ ؟! أَوَلَمْ يَبْقَ فِي الْأَرْضِ صَالِحٌ
مُصْلِحٌ ، أَوَلَا يُوجَدُ فِي الدُّنْيَا رَاضٍ وَفِي
وَكَرِيمٌ مِعْطَاءٌ حَيٌّ ؟! أَوَقَدْ اخْتَفَى ذَوُو
الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ وَمَاتَ أَهْلُ الصِّفَاتِ
النَّبِيلَةِ ؟!

وَقَدْ يَنْقَدِحُ فِي ذِهْنِ بَعْضِنَا بَعْدَ كُلِّ هَذَا
سُؤَالٌ يَقُولُ : هَلْ وَصَلْنَا إِلَى زَمَنِ يَكُونُ

أَصْلَحُ مَا لِلنَّفْسِ اعْتِرَالُ النَّاسِ
وَمُجَانِبَتُهُمُ وَالْتَقْلِيلُ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ !؟
لَا نَظْنُ ذَلِكَ عَلَى إِطْلَاقِهِ أَيُّهَا الْعُقَلَاءُ
، وَلَكِنْ... قَدْ تَكُونُ الْحَالُ كَمَا قَالَ
الشَّاعِرُ :

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا
وَمَا لَزَمَانِنَا عَيْبُ سِوَانَا
وَقَدْ نَهْجُو الزَّمَانَ بِغَيْرِ جُرْمٍ
وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ بِنَا هَجَانَا

وَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ جِيلُ الْكِبَارِ قَدْ نَشَأَ عَلَى
أَخْلَاقٍ وَعَادَاتٍ ، وَطَرَائِقَ فِي التَّعَامُلِ
يَعُدُّهَا هِيَ الْأَكْمَلُ وَالْأَجْمَلُ ، وَيَرَى
الْجِيلَ الَّذِي هُوَ أَصْغَرُ مِنْهُ قَدْ فَقَدُوهَا
وَجَانَبُوهَا ، وَاکْتَسَبُوا أَخْلَاقَ أَقْوَامٍ
آخَرِينَ بِسَبَبِ وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ أَوْ تَأْثِيرِ
الْإِعْلَامِ أَوْ غَيْرِهِ ، فَإِنَّ الْكِبَارَ يَجِبُ أَنْ
يَبْقُوا عَلَى كُلِّ حَالٍ كِبَارًا ، فَيَصْبِرُوا
وَيَحْتَسِبُوا ، وَيَتَحَمَّلُوا وَيَتَجَمَّلُوا ،

وَيَحْرِصُوا عَلَى التَّمَسُّكِ بِالِدِّينِ أَوَّلًا ، ثُمَّ
الْعَادَاتِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي جَاءَ الْإِسْلَامُ
وَالْعَرَبُ عَلَيْهَا فَأَيَّدَهَا ، ثُمَّ بِالْمُرُوءَاتِ
الَّتِي تَكَادُ شُعُوبُ الْأَرْضِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا
تُجْمَعُ عَلَيْهَا ، فَلَعَلَّهُمْ بِذَلِكَ أَنْ يُورِثُوا
جِيلَ الْأَبْنَاءِ مَا وَرِثُوهُ هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ
وَأَجْدَادِهِمْ ، وَيُعَلِّمُوهُمْ مَا تَعَلَّمُوهُ فِي
مَدَارِسِهِمْ أَوْ كَسِبُوهُ مِنْ تَجَارِبِ الْحَيَاةِ ،
فَجِيلُ الْيَوْمِ يَعِيشُ فِي زَمَنِ كَثُرَتْ عَلَيْهِ

الْوَارِدَاتُ وَالشَّارِدَاتُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ،
وَأَجْلَبَ الْعَدُوُّ عَلَيْهِ بِأَسْلِحَتِهِ الْمَعْنَوِيَّةِ
لِحَرْبِ الْأَخْلَاقِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَإِنَّ
هَذَا لِمَنْ عَقَلَ وَوَعَى ، لِيَزِيدَ الْمَسْئُولِيَّةَ
عَلَى الْكِبَارِ ، وَيُلْزِمُهُمْ أَنْ يَقُوا كِبَارًا ،
فَيَاطِرُوا نُفُوسَهُمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَيُلْزِمُوهَا
حَسَنَ الْخُلُقِ ، أَجَلُ أَيُّهَا الْكِبَارُ ، إِنَّهُ
لِمَنْ النَّقْصُ فِي حَقِّ الْكَبِيرِ أَنْ تَصْغُرُ
هِمَّتُهُ ، أَوْ تَضَعُفَ عَزِيمَتُهُ ، أَوْ يَتَهَاوَنَ

وَيَتَكَاَسَلُ فِي أَدَاءِ رِسَالَتِهِ التَّرْبَوِيَّةِ فِي
الْحَيَاةِ ، فَيَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ، أَوْ
يَغْفَلَ مَعَ الْغَافِلِينَ ، أَوْ يَتَنَازَلُ عَنْ تَدْيِينِهِ
وَتَعَقُّلِهِ وَتَبَصُّرِهِ ، أَوْ تَسْتَخِفُّهُ الشَّيَاطِينُ
فَيَكُونُ أَحْمَقَ نَزَقًا ، لَا يَرْضَى إِذَا غَضِبَ
، وَلَا يَفِيءُ إِذَا أَدْبَرَ ، وَلَا يَسْمَحُ إِذَا
حَقَّدَ ، وَلَا يَتَنَازَلُ إِذَا رَأَى أَنَّ لَهُ حَقًّا ،
وَلَا يُعْطِي مِنْ نَفْسِهِ وَلَا يَبْذُلُ ، لَا وَاللَّهِ
، إِنَّ الْكَبِيرَ لَيْسَ وَحِيدًا فِي صَحَرَاءَ لَا

يَرَاهُ أَحَدٌ وَلَا يَرْقُبُ تَصَرُّفَهُ مَخْلُوقٌ ، وَلَا
يَتَأَثَّرُ بِهِ مَنْ حَوْلَهُ وَلَا يُقْتَدَى بِهِ ، بَلْ إِنَّ
كَبِيرَ الْقَوْمِ سِنًّا أَوْ عِلْمًا أَوْ قَدْرًا ، أَوْ
مَكَانَةً أَوْ مَنْصِبًا أَوْ جَاهًا ، إِنَّهُ لَشَمْسٌ
تَرَاهَا الْعُيُونُ ، وَيَتَبَدَّدُ بِنُورِهَا الظَّلَامُ ،
وَيُبْصِرُ عَلَى ضَوْئِهَا الطَّرِيقُ ، بَلْ وَيَطْهَرُ
بِبَعْضِ حَرَارَتِهَا وَجْهُ الْأَرْضِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ
الْآفَاتِ ، أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ
مِنْ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ عَلَى النَّاسِ أَنْ

يُزْهِدَ بَعْضَهُمْ فِي بَعْضٍ ، وَأَنْ يُوسِّعَ
الْفَجَوَاتِ بَيْنَهُمْ ، وَيُكَبِّرَ كُلَّ صَغِيرَةٍ فِي
نُفُوسِهِمْ حَتَّى لَا يَتَسَاءَلُوا وَلَا يَتَصَالَحُوا
، وَلَا يَقْبَلُوا مِنْ بَعْضِهِمْ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا
، مُوَحِّيًا لَهُمْ أَنَّ الْأَجْيَالَ السَّابِقَةَ كَانَتْ
أَكْمَلَ وَأَعْقَلَ ، وَأَشَدَّ تَمَسُّكًا بِالْأَخْلَاقِ
وَالْعَادَاتِ ، وَأَنَّ النَّاسَ الْآنَ فَسَدُوا
وَانْهَارَتْ أَخْلَاقُهُمْ ، وَلَا يَزَالُ يُوسُوسُ
لَهُمْ بِذَلِكَ لِيَفْقِدَ كُلُّ مِنْهُمْ الثِّقَةَ فِي الْآخِرِ

، وَيَرَى أَنَّهُ لَيْسَ مَحَلًّا لِلْإِكْرَامِ وَلَا لِلزِّيَارَةِ ،
وَلَا لِلصُّحْبَةِ ، وَلَا لِلتَّسَامُحِ وَالْعَفْوِ عَنْهُ
وَالصَّفْحِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي
رَوَاهُ مُسْلِمٌ : " إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ
النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ " أَيْ فَهُوَ أَشَدُّهُمْ
هَلَاكًا ، أَوْ فَهُوَ الَّذِي جَرَّدَهُمْ مِنْ كُلِّ
خَيْرٍ وَأَلْبَسَهُمْ كُلَّ شَرٍّ ، فَصَارُوا كَمَا قَالَ
أَوْ أَشَدَّ ، وَتَاللَّهِ مَا كَانَتْ الْأَجْيَالُ
السَّابِقَةُ أَفْضَلَ مِنَ الْأَحِقَّةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ

، وَمَا كَانُوا مَلَائِكَةً وَلَا سُكَّانَ أَرْضٍ
أُخْرَى ، وَلَا نُفُوسُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ مُغَايِرَةٌ
لِنُفُوسِنَا وَقُلُوبِنَا ، بَلْ لَقَدْ وَقَعَ الْخَطَأُ
وَالْتَقْصِيرُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَفِي كُلِّ جِيلٍ ،
وَلَكِنَّ سَبَبَ نَجَاحِ النَّاجِحِ وَفَلَاحِ الْمُفْلِحِ
فِيَمَنْ سَبَقَ وَفِي عَصَرِنَا وَفِي كُلِّ عَصَرٍ ،
إِنَّمَا هُوَ اتِّبَاعُ مَا فِي الْوَحْيَيْنِ ، وَالْعَمَلُ
بِالْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابُ النَّوَاهِي ، وَاحْتِسَابُ
الْأَجْرِ فِي التَّحَلِّيِّ بِكُلِّ خُلُقٍ نَبِيلٍ ،

وَمُجَاهَدَةُ النَّفْسِ فِي التَّخَلُّصِ مِنْ كُلِّ
صِفَةٍ سَيِّئَةٍ ، فَاللَّهُ اللَّهُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ،
لِنَتَدَبَّرَ كَلَامَ رَبِّنَا وَكَلَامَ رَسُولِنَا ، وَلِيَجْعَلَ
كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا نَفْسَهُ هُوَ الْمَقْصُودَ بِكُلِّ
نُصْحٍ وَتَوْجِيهِ يَسْمَعُهُ ، فَإِنَّمَا الْعِلْمُ
بِالتَّعَلُّمِ ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ ، وَمَنْ
يَتَحَرَّرَ الْخَيْرَ يُعْطَهُ ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ
، وَمَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ هُدًى ، وَلِنَتَعَاوَنَ
عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلِيَكُنْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا

قُدُوةً فِي الْخَيْرِ مِفْتَاحًا لَهُ دَاعِيًا إِلَيْهِ ،
بِإِذْنٍ مِنْهُ مَا يَسْتَطِيعُ وَيَقْدِرُ عَلَيْهِ ،
وَلِيُصْلِحَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَعِيبَ غَيْرَهُ ؛ فَإِنَّمَا
الْمُجْتَمَعُ لِبَنَاتٍ إِذَا صَلَحَتْ قَامَ الْبِنَاءُ
وَأَشْتَدَّ " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي
السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ "

أَمَّا بَعْدُ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ
وَاجْتَنِبُوا نَهْيَهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مِنْ أَكْثَرِ مَا
يُفْسِدُ الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ النَّاسِ ، أَنْ يَنْظُرَ
الْمَرْءُ إِلَى نَفْسِهِ نَظْرَةَ الْكَمَالِ ، فِي الْحِينِ
الَّذِي يَنْظُرُ فِيهِ إِلَى الْآخَرِينَ بِشَيْءٍ مِنْ
الْإِحْتِقَارِ ، وَلِهَذَا فَهُوَ لَا يَعْتَرِفُ عَلَى
نَفْسِهِ بِالْخَطَا ، وَلَا يَقْبَلُ أَنْ يُنْتَقَدَ أَوْ
يُنْصَحَ ، أَوْ يُبَيَّنَ لَهُ خَطْوُهُ أَوْ يُقَرَّرَ بِزَلَّتِهِ
، يُنَزِّهُ نَفْسَهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ، وَيَتَلَمَّسُ

لَهَا الْعُذْرَ فِي كُلِّ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ ، ثُمَّ
يَجْعَلُهَا فِي مَقَامِ النَّاقِدِ لِلنَّاسِ وَالْمُزِرِي
عَلَيْهِمْ ، وَالْمُتَّبِعِ لِزَلَّاتِهِمِ وَالْمُنْقِبِ عَنْ
قُصُورِهِمِ وَالشَّاكِي مِنْ تَقْصِيرِهِمْ ، وَلَا
وَاللَّهُ لَا يَزُولُ مَا بَيْنَ النَّاسِ مِنْ احْتِقَانٍ
وَشَحْنَاءَ ، وَلَا وَاللَّهِ تَطِيبُ خَوَاطِرُهُمْ
وَتَهْنَأُ نُفُوسُهُمْ ، وَيَزْدَادُ خَيْرُهُمْ وَيَقِلُّ
شَرُّهُمْ ، إِلَّا أَنْ يَتَرَفَّعُوا عَنْ هَذَا التَّنَازُلِ
، وَيَتَدَرَّبُوا عَلَى أَنْ يَشْكُرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا

وَيُثْنِي بَعْضُهُمْ عَلَى مَعْرُوفٍ بَعْضٍ وَلَوْ قَلَّ
، وَأَنْ يُشَجِّعُوا كُلَّ عَطَاءٍ وَلَوْ كَانَ صَغِيرًا
، بَلْ وَيُعَوِّدُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْعَطَاءِ ،
وَيُخَلِّصُوهَا مِنْ طَمَعِ الْأَخْذِ ، فَإِنَّ مَنْ
عَوَّدَ نَفْسَهُ الْعَطَاءَ جَادَتْ وَسَمَحَتْ
وَسَخَتْ ، وَمَنْ عَوَّدَهَا الْأَخْذَ فَحَسِبُ
، غَدَتْ شَحِيحَةً ضَيِّقَةً طَمَّاعَةً ، لَا
يَمْلِكُ جِمَاحَهَا رِضًا وَلَا تَرُدُّهَا قَنَاعَةً ،
وَشُكْرُ اللَّهِ هُوَ طَرِيقُ الزِّيَادَةِ ، وَلَا يَشْكُرُ

اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ
لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ
عَذَابِي لَشَدِيدٌ "